الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

كتاب الحيوان للجاحظ أول موسوعة علمية عربية في علم الحيوان

The Book of Animal Written by EL JAHIDH Entitled - EL HAYAWAN- as a first Arabic Scientific Encyclopedia in Zoology

أ. عمارة فاطمة الزهراء
أستاذة مساعدة (أ) كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية-قسم التاريخ - جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف
amarafatima312@yahoo.fr

ملخص

كانت مؤلفات العرب في علم الحيوان تشمل مواضيع بعض الحيوانات إلى أن كتب الجاحظ كتابه الحيوان ليضم سائر الحيوانات، متطرقا إلى كل ما يتعلق بها وملما بصفاتها وسلوكها وغرائزها ونمط معيشتها وجوانب كثيرة مرتبطة بحياتها لم يهملها الجاحظ بل دقق فيها وفق منظور علمي قائم على الاستدلال، العقل، التجربة، فاعتبر بذلك أول من وضع موسوعة علمية وكان أول علماء التجريب في علم الحيوان عند العرب والمسلمين.

الكلمات الدالة: كتاب الحيوان، الجاحظ، علم الحيوان موسوعة علمية عربية.

Abstract

The previous written of the Arabs in animal science and zoology was deal with some animals, until the appeared of the book written by lierary writter so called - EL-JAHIDH- where he was entitled his famouse books by EL-HAYAWAN- when he tried to encompass the majors animals, throughout exploring with details all the feature, behaviors and its style of leaving, where he used a scientific approach like the inferred, reasons and experimentation, thus, they considered the EL JAHIDH as the first one in the Muslims and Arabs who written the first scientific encyclopedia in zoology, and the first who used a experimentation scientific methods in zoology.

Keywords: *the Books of EL HAYAWAN, EL-JAHIDH, Zoology, Arabic Scientific Encyclopedia.*

مقدمة

إن ما يعيشه العالم اليوم من تقدم حضاري وما يتماشى معه من تطور للعلوم والصناعات، هو في حقيقة الأمر امتداد لتطور وامتزاج حضارات مختلفة عبر التاريخ، ساهمت دون شك الحضارة الإسلامية بسهم وافر قل من يعترف اليوم بحقها،ويحاول عمدا تخطي حلقة علوم حضارة المسلمين، ويعترف لنفسه بأسبقية التطرق والخروج بأهم النظريات العلمية الحديثة في بعض العلوم متناسيا أن للمسلمين تراثا علميا لا يزال مدونا وموثقا يعترف بنبوغ وعبقرية أصحابه الذين أبدعوا في مختلف العلوم.

تعد العلوم الطبيعية بفرعيها علم النبات والحيوان من أهم الاختصاصات التي خاض غمارها علماء الإسلام مبكرا، ففي علم الحيوان يتبادر إلى ذهن أي قارئ أو مثقف اسم كتاب الحيوان للجاحظ، هذا العنوان الذي ظلت شهرته وشهرة مؤلفه بارزة في الأدب والفكر على اعتبار الجاحظ أديبا، فيلسوفا، مفكرا، فما الذي ساقه إلى التأليف في هذا الباب "علم الحيوان"؟ وما قيمة هذا الكتاب في هذا العلم ضمن جملة من المؤلفات الكثيرة في نفس الاختصاص؟ بمعنى آخر ماذا قدم الجاحظ من خلال هذا الكتاب لعلم الحيوان؟

هو أبو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، كنيته أبو عثمان والمعروف بالجاحظ[1]، جاء في معجم الأدباء أنه مواليد أواخر سنة 150هـ[2]بمدينة البصرة، واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته ما بين 250 و255هـ[3]، نشأ بمدينة البصرة "حيث كانت حاضرة العلم والتجارة بفضل سوقها المربد ملتقى التجار والمثقفين واللغويين والشعراء يتبارون فيها ويتبادلون الرأي والسلع، وكانت البصرة تنازع الكوفة الإمامة الفكرية واللغوية، فهي موطن الشعراء والأدباء وموطن ميلاد بعض المذاهب أو التفكير المنطقي فهي منشأ القدرية التي أكملتها المعتزلة"[4].

ما زاد من رصيد الجاحظ اللغوي هو رحلته إلى بغداد فقرأ على أعلام اللغة هناك كأبي عبيدة والأخفش والأصمعي[5]، عرف عنه أيضا نزعته للإعتزال، وإليه تنسب الفرقة الجاحظية(6) من المعتزلة، أخذ عن إمام الاعتزال أبو إسحاق إبراهيم بن يسار المعروف بالنظام[7] المنطق في علم الكلام والاعتزال[8].

ففي قضية مشيخته سؤال يطرح نفسه بإلحاح:كيف لأربعة من العلماء والأدباء دور في تكورين رجل عالم ومفكر كالجاحظ؟ لعله تردد على علماء آخرين لم تذكرهم المصادر غير أن اتفاق المترجمين له بالذكاء الخارق وحبه للعلوم وكثرة المطالعة جعلت منه عصاميا حتى قيل عنه "لم يقع كتاب بين يديه إلا وقرأه، واكترى دكاكين الكتبيين والوراقين وبيت فيها للمطالعة، كان باقعة في قوة الحفظ"[9]، لا يفارقه كتابه حتى في مجلس الخليفة[10].

صنفه أهل الطبقات والتراجم ضمن أهل العلم الكبار المشهورين[11] قال الذهبي: "العلامة متجر ذو الفنون.... كان من بحور العلم"[12]، وكان للجاحظ حضور علمي في الكثير من فنون العلم، فيمكن وضع اسمه ضمن علماء الإسلام الموسوعيين، فكثرة تأليفه في علوم كثيرة نفت عنه الاختصاص في علم أو فنون معينة، بل مشاركته فنون العلم الكثيرة، بدليل كثرة تصانيفه في كل فن، ناهيك عن تفوقه الأدبي.

جاء في معجم الأدباء خلاصة هذا الرأي "كان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا"، "وله كتب مشهورة في نصرة الدين....والجاحظ عظيم القدر عند المعتزلة"[13]، نسيج وحده في جميع العلوم جمع بين علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب مع ما فيه من الفصاحة...."[14].

فالشاهد إذن ما عرف عنه من كثرة تآليفه في مجالات علمية مختلفة وهي مؤلفات كثيرة جدا[15] ومشهورة[16]، ولعله لم يترك بابا من أبواب العلم إلا وكتب فيه[17]، ورسائل كثيرة حتى أكد ابن الجوزي أن كتبه بلغت 360 كتابا[18]، بلغت بعضها شهرة واسعة كالبخلاء والبيان والتبيين، وكتاب الحيوان، هذا الأخير الذي نال حظا كبيرا بين العامة والنخبة في المجتمع الإسلامي، وعلى حد تعبير ابن خلكان يعد كتاب الحيوان من أحسن تصانيفه وأمتعها[19].

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا التفت الجاحظ إلى موضوع الحيوان دون مواضيع أخرى كان الأحرى به أن يؤلف فيها باعتباره من أقلام الدين والأدب والسياسة ومواضيع كثيرة كان يفضلها أكثر كعلم الكلام والاعتزال والسياسة...؟

يتبادر إلى الذهن للإجابة على هذا السؤال عدة احتمالات، الأول هو تأثر الجاحظ بشيوخه في بغداد، فلأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت207 أو 209هـ) كتبا في عالم الحيوان: كتاب البازي، الحمام، الحيات، الحيوان، العقارب، الخيل، الإبل، الفرس، وأسماء الخيل[20].

وكتب شيخه كذلك أبو سعيد عبد الملك الأصمعي (ت214هـ/829م) عن الخيل والإبل والشاه، أما أبو الحسن سعيد بن الأخفش له كتاب في صفات الغنم (ت215هـ/209م) [21]، مع العلم أن هؤلاء كتبوا في علم النبات وكذلك الجاحظ له كتاب في الزرع والنخل[22]، من البديهي أن يقلد أبو عثمان شيوخه فنحى منحاهم في مجال التأليف.

الاحتمال الثاني هو رغبته في أن يتوسع في مجال الحيوان ليكتب كتابا ضخما يقع في سبع مجلدات[23]، يُطلِق عليه كتاب الحيوان ليشمل الحيوانات البرية والبحرية، المتوحشة والأليفة، وكذا الحشرات وسائر الحيوانات، وله كتاب آخر في نفس المجال وهو "القول في البغال"[24]، وهو تتمة لكتاب الحيوان[25]، وينفي الذهبي كتاب الجمال له، ويؤكد أنه ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه"[26].

ومن الباحثين من يرى أن سبب تأليف الجاحظ للحيوان هو الانتصار للمعتزلة الذين تناولوا مواضيع الحيوان، وكذلك محاولة منه الانتصار للأورمة العربية حيث استثارتها الشعوبية وذلك بتقبيح بعض الحيوانات ورمي العرب بها كالضب[27].

لا نستغرب أن يلجأ الجاحظ إلى الطبيعيات وينكب عليها ليلا ونهارا حتى ينهي كتابه هذا مع كبر سنه وإصابته بمرض الفالج والنقرس، فنرى الدافع الذي حفزه على تأليف كتاب الحيوان هوكون الجاحظ من أعلام النزعة المعتزلية فهم يميلون بحكم مذهبهم إلى التفكير والطابع العقلي أكثر وتكلموا عن الحيوان كثيرا[28].

بعد انتهائه من تأليف لهذا الكتاب أهداه إلى وزير المعتصم العباسي محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات ومنحه ألفي دينار ثمنا له[29]، وهذا ليس بجديد عن الجاحظ، فقد كانت تربطه علاقة قوية بخلفاء القرن الثالث العباسيين، ومن خلال العديد من مؤلفاته دافع عنهم وأيد شرعية حكمهم بدل الأمويين، فكتب عدة رسائل "كالعباسية" وبعدها كتب "رسالة العثمانية" والتي تتعارض في محتواها مع الرسالة الأولى، إلا التقلبات السياسية في عهد المتوكل جعلته يغير إيديولوجيته في بعض المواقف في شأن الخلافة ما بين العلويين وأفضلية أبي بكر وعمر وغيرها من مسائل الإمامة[30]، حتى أنه خالف المعتزلة في الكثير من الآراء حول الخلافة والسياسة وفقا لما تقتضيه رغبة العباسيين، وما نريد قوله هنا باختصار أن العباسيين ابتداء من المأمون، المعتصم، المتوكل والواثق، أدركوا قيمة هذا المفكر النابغة[31] الذي يتوافقون معه في قضية الاعتزال، فاتخذوه حلقة وصل بينهم وبين رعيتهم بواسطة قلمه الذي كان لا يجف ولا يبخل لا عن العباسيين ولا عن قرائه.

ما يهمنا من هذه الدراسة أن نسلط الضوء على الجوانب العلمية في كتاب الحيوان، فالكتاب موسوعة علمية باتفاق جل الباحثين المتخصصين في الطبيعيات أو العلوم الحيوانية، باعتباره أول كتاب عربي جامع في علم الحيوان، ناهيك عن ما يحتويه من مادة أدبية، وتاريخية، ممزوجة على عادة الجاحظ بالنوادر توحي كلها بفكره الواسع وتؤكد وزنه العلمي بين أقرانه.

فالكتاب موسوعة علمية باتفاق جميع الباحثين باعتباره أول كتاب عربي جامع في علم الحيوان، فالإضافة إلى الجانب العلمي، فقد تضمن أيضا مادةأدبية وتاريخية توحي بموسوعة الجاحظ وإلمامه للعديد من فنون العلم والمعرفة، فقد حاول الجاحظ في كتابه الحيوان تصنيف المملكة الحيوانية، وتناول وصفها ووصف سلوكها وخصائصها وطرق عيشها وتكاثرها وفوائدها، فالكتاب يعد سفرا في مجال علم الحياة أو بيولوجيا الحيوان[32].

عُدَّ كتاب الحيوان موسوعة علمية لعدة اعتبارات بداية لما يحتويه من مادة علمية غزيرة جدا تنم عن سعة إطلاع الجاحظ ودقة ملاحظته وبراعته في الوصف الدقيق لكل أجزاء الحيوان وما يتعلق به، فهو يبحث في جميع أمور الحيوان عامة، فهي موسوعة قل نظيرها من حيث شمولها وغزارة معلوماتها وتغطيتها لمعظم حيوانات العالم آنذاك[33]، فكل ما يتعلق بالحيوان حاضر وبقوة في الكتاب "فهو ليس معجما بمصطلحات الحيوان في اللغة العربية، وليس كتابا على منوال تصانيف الفلاسفة وليس كتابا في الأدب، بل هو مصنف واسع يتناول عدة أوجه من حياة الحيوان، فالأشعار والأخبار فيه مقتصرة على طباع وحياة وسلوك الحيوان[34].

غير أن الحضور العلمي في الكتاب أعطاه مكانته وقيمته، فالتجربة والاستقراء والملاحظة منهج الجاحظ في الوصول إلى الحقيقة، ما جعله يؤكد نظريات من سبقوه وينفي ويُخَطئ بعضهم لأن التجربة تؤكد ذلك، هذا ما جعل الجاحظ أول علماء الحيوان التجريبيين دقيق الملاحظة، عميق التفكير في وصفه للحيوان[35].

اعتمد الجاحظ في تأليفه الكتاب على العديد من المصادر على رأسها الكتاب والسنة، وجملة من المصادر الأصيلة منها ما هو تراث قديم ومؤلفات لعهده قريبة، وروايات شفوية من ذوي الاختصاص في مجال الحيوان.

قدم القرآن الكريم والسنة النبوية قبل هذه المصادر، باعتبارها أصح وأصدق وأدق النصوص على الإطلاق للاستدلال بها[36]، ثم اعتمد على المؤلفات العربية في علم الحيوان عامة، وعلى رأسها خاصة شعر الأعراب البدو "دواوين الشعراء العرب، التي تحتوي على خبرة الأعراب وأخبار الشعراء المستمدة من بيئتهم، كما أسلفنا سابقا أن للعرب تراث كبير في مجال الحيوان بشتى أنواعه.

لذلك فهو يرى أن العرب والأعراب ثقفوا معرفة الحيوان قائلا: "وقل ما سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه قريبا منه في أشعار العرب والأعراب"[37].

فالكتاب مفصل بكثير من الشعر العربي، موشح بعيون ما نظم العرب والأعراب في الحيوان من شعر، ومن ثقته في الشعر فهو يصدره في الرد على أقوال أرسطو المخالفة لأقوال العرب ويحتج به عليه في عدة مواضع من كتابه[38].

اعتمد بعد المصادر العربية على تراث القدامى اليونانيين، تحديدا كتاب الحيوان[39] لأرسطو طاليس (322-384ق.م)[40]والكتاب ذو قيمة معرفية كبيرة بحكم اختصاص مؤلفه أولا ولأنه ذو قيمة معرفية علمية كبيرة، لتفوق أرسطو في هذا المجال، بل اعتبره البعض واضع أسس علم الحيوان[41].

دخل كتاب الحيوان لأرسطو حيز المقروئية والمكتبة العربية في بغداد في أولى بدايات حركة الترجمة خلال العصر العباسي الأول ترجمه يوحنا بن البطريق (ت200هـ)[42]، فكانت مباحث

الحيوان من جملة ما عرفه العرب عن اليونان، وقد أصاب منها علم الحيوان نصيبا باعتباره فرعا من فروع العلم الطبيعي وكان لهذا الكتاب أكبر الأثر في تنظيم المعرفة بالحيوان عند العرب"[43].

اعتمد الجاحظ أيضا على خبرة مربي الحيوانات والطيور وصائدي الأسماك، فقد وردت إشارات كبيرة في الكتاب إلى هؤلاء، فخبرتهم لم يهملها الجاحظ بل جعلها مصدرا للرد على المخطئين لتصويب آرائهم[44].

حاول محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون أن يخرجه في سبعة أجزاء حسب ما كتبه وما قسمه الجاحظ إلى سبعة أجزاء، غير أنه بتعدد نسخه، تعددت أجزاءه، فطبع بأربع مجلدات أيضا.

إلى جانب الحيوان بمختلف أنواعه وأصنافه احتوى الكتاب على معارف مختلفة: طبيعية، فلسفية، كلامية، سياسية، تاريخية وجدليات أهل الكلام والطوائف الدينية، كما تعرض لعلوم أخرى هي في حقيقة الأمر تمثل البيئة أو الوسط الذي يعيش فيه الحيوان: كالنبات والمعدن (الحجر)، والجغرافيا بالإضافة إلى المعارف الطبية[45].

هذا بصفة عامة من الكتاب، أما محتويات هذه الموسوعة فهي على ستة أجزاء وخصص المحقق الجزء السابع والثامن للفهارس العامة، فالجزء الأول تناول المؤلف موضوع الأخصاء والخصيان ثم انتقل إلى الحديث عن خصي الحيوان وحكم الشرع في ذلك وسرد أقوال الفقهاء في حكمه للدواب،وتناول فيه أيضا طباع البشر وما يشابهها من طباع وغرائز، ومن الحيوانات تناول فيه: الإبل، الخيل، الخنازير والحمير الوحشيةوالزرافة والضبع والكلب والناقة والهرة والنعامة والهرةالوحشية، والبعوض والطير والدجاج والديكة والهدهد والجدي والشبوط، والحرباء والجعل والخنافس.

والجزء الثاني: ظل الكلب محور هذا الجزء وقسمه إلى احتجاج صاحب الكلب بالأشعار والأمثال فيشأنه وتناول من الحيوان فيه: الأسد والثعلب، البقر، البعير، الجرذ، الحمار،الخنزير، الخيل، الذئب،السنور، الشاة والضب،الضبع، الغنم، الفهد، الفيل،القرد، البازي، الحمام، الدجاج، الديك، الطاووس، الطير، العقاب، الغراب، النسر، الجبة،الجعل وابن آوى، واحتوى الجزء الثالث مادة غريزة عن الحيوان الطائر عموما وأسهب في الحديث عن الحمام بوصفه ووصف خصاله وتناول الذبان، الغربان، الجعلان، الخنافس، الخفاش، وتناول أيضا الأسد، الإبل،البغال، الحمار، الخيل، الغزال، الليث.

والجزء الرابع تناول فيه النمل والقردة والخنازير والحيات وما جاء فيها من أقوال العرب وعاود الحديث عن الأسد، البعير، الجرذ، الكلب، القنفذ، الذئب، السنور، الضب، الضبع، الفرس، الحشرات كالجراد، العقارب، الحية، الأفاعي، السمك،السلحفاة، والجزء الخامس استهله بالحديث عن النار ثم الماء وتناول فيه العديد من الحيوانات والحشرات الضارة والنافعة وتضمن هذا الجزء مباحث عن مواضيع مختلفة والنوادر من الشعر.

وفي الجزء السادس واصل حديثه عن الضب والأرانب وأشعار عن السباع والوحش والحشرات والأسماك والطيور التي تكرر الحديث عن معظمها في الأجزاء سابقة الذكر وتضمن مواضيع مختلفة على عادة الجاحظ ذكرها من نوادر وأشعار، وأضاف إلى كتابه أشكال ورسومات للحيوان.

نلاحظ أن الكتاب يحتوي ثروة علمية ولغوية وأدبية هامة متعلقة بالحيوان وطباعه وسلوكه وغرائزه، وغالبا ما كان المؤلف يخرج عن الإطار العلمي للكتاب إلى مواضيع وفوائد وحتى النوادر أحيانا، "ما يضفي إلى الكتاب نفسا أدبيا يزيد القارئ فكرا ومعرفة ولعله قصد بذلك الترويح عن القارئ"[46].

وهذا ما جعله يستعمل الأسلوب الاستطرادي كثيرا في تدوينه الكتاب، فنجد أسماء الحيوانات تتكرر كثيرا في مواضع عديدة وفي مختلف فصول الكتاب، وعلة ذلك أن الجاحظ لا يخصص بابا أو فصلا كاملا ليذكر فيه جميع ما له علاقة به، بل نراه يذكر جانبا في أحواله وفي مواضع أخرى جوانب أخرى أيضا[47].

والبارز في الكتاب هو المنهج العلمي للجاحظ الذي جعل الكتاب يختلف عن ما ألف في مجال الحيوان، حاول أن يبرز ويوضح للقارئ كل ما يتعلق بالحيوان من صفات خارجية، داخلية، غريزية ونفسية وسلوكية.

الوصف الخارجي للحيوان: فيصف الحيوان وصفا دقيقا يشمل شكله ومظهره، يصف جلدته أو شعره، لونه، يدقق في وصف أعضائه وأطرافه، والوصف الداخلي لم يهملهوالمتعلق بأعضاء الحيوان وأعطى للجانب الغريزي حقه من التفصيل والتحليل وأخضع أدلته لمقاييس علمية لإثبات وتوضيح غرائز الحيوانات الجنسية، تكلم في عملية التكاثر عندها وطريقة حملها ومدته،وتحدث عن المرحلة الجنينية وكيفية التوالد بشرح تفصيلي لدورات الشبق عند كل حيوان، وخصائص النسل وصفاتها وعلامات الحمل والوضع، وبدون جدل فإن تلك الغرائز التي شرحها الجاحظ تنطبق مع السلوك الحيواني في العصور والأجيال كافة[48].

وتطرف لنمط معيشته القائم على نوعية طعامه وشرابه والكمية التي يستطيع من خلالها إشباع غريزة الجوع لديه -ولم يهمل طريقة أكل الحيوان- فقد تضمن الكتاب ملاحظات هامة عن الحيوانات المجترة (ذوات الكروش) وطريقة اجترارها الأكل، ووضح كيف أنه خاصية للحيوانات الثدية دون غيرها من ذوات الحافر كالخيل[49].

بالإضافة إلى إشارته في كيفية حصول الحيوان على طعامه وكيفية ادخاره لنفسه، وأفضليته لأنواع معينة من اللحوم والحشائش والنباتات وغير ذلك[50].

ألّم الجاحظ في كتابه بكل الجوانب التي تعتري حياة الحيوان حتى الجانب السلوكي[51]، تعرض لعلاقات الحيوانات ببعضها كعلاقة الأم بصغارها، وتصرفات الحيوانات وحركاتها، وميز وفرق طباع وسلوك كل حيوان عن الآخر[52]، وتحاشى التعقيد في عرضه للجانب السلوكي للحيوان ووصفه للقارئ بأسلوب سهل[53]، هذا في إطار عام، لم يهمل فيه بيئته ومحيطه وعلاقته بالطبيعة والحيوان الذي يعيش معه، مبررا دور الطبيعة على استقرار وهجرة والانتقال من مكان لآخر في فصول وأشهر معينة من السنة والتغيرات التي تطرأ على الحيوان جراء هجرته وأثر ذلك على تناسله وحياته[54].

انتهى المؤلف في تطرقه إلى سلوك الحيوان إلى أفضلية بعضه عن غيره من حيث فوائده أو مدى استخدامه للإنسان في حياته، أو خطورته ومضاره إذا كان من صنف المتوحش (غير الأليف) مستدلا بذلك على القرآن أو السنة أو التجربة،والحقيقة العلمية المتفق عليها من أهل الاختصاص[55] أثناء وصف المؤلف للحيوان نجده يتعرض حتى للجانب النفسي "بل ذهب إلى تحليل نفسية الحيوان وطباعه من وحشية أو ألفة... وإصابته بالجنون والصرع وما يصيبه من سكر عند شرب الخمرة، وتعلم الحيوان وتدريبه وغير ذلك من الموضوعات التي تندرج تحت علم النفس الحيواني"[56].

ناقش الجاحظ كل هذه المواضيع ونقاط كثيرة يصعب حصرها في هذا المقال، ما يدفعنا للحديث عن منهجه العلمي الذي سار فيه على خطوات تعتمد على إعمال العقل والاستدلال[57]، والتي تحرى فيها الأمانة العلمية مسندا الأقوال لأصحابها، فأكد كل ما هو صحيح وخطّأ كل ما يرفضه العقل، اعتمد في منهجه على الملاحظة ، الاستدلال، الشك، ثم التجربة والاستنتاج.

فعلى ضوء ما اطلع عليه من مؤلفات العرب ودواوينهم وكتاب أرسطو كان يخرج باستنتاجات دقيقة مكنته من أن يصحح ويستغرب بعض أقوال أرسطو[58] اعتبر بعضها غير منطقي كالعلاج بحجر قبور الملوك لعض الثعبان أو قوله بأن هناك حية ذات رأسين تأكل وتسعى برأس واحدة وتعض بالاثنين[59].

لعل الجاحظ اتخذ مبدأ "الشك" في تدوين الحقائق العلمية ربما التي يغيب فيها إجماع المتخصصين أو انفراد بعضهم عن الآخر في بعض القضايا، فالتجربة كانت سبيله ليقطع الشك باليقين وكان يقول لا تشفيني إلا المعاينة، لأن التجربة لا تدع مجالا للشك عنده[60]، واتخاذه التجربة لنفسه كدليل أو تجارب غيره التي أخذها عن طريق السماع من أهل الاختصاص[61]"فكان عن طريق التجربة يتحقق من النظريات العلمية فيقطع طرفا من أعضاء الحيوان ويضع عليها السم وحينا كان يرمي بتجربته إلى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في معرفة صفاته،كما كان يذبح الحيوان ويفتش جوفه وقانصته ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات لمعرفة حركته... وكان في أوقات يبجع بطن الحيوان ليعرف مقدر ولده، كما كان يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها وكان يلجأ إلى استعمال مادة كيميائية ليعرف تأثيرها في الحيوان، ولم يقف عند تجاربه بل كان يشك في نتائجه ويعاود التجربة"[62]، لذلك اعتبر من طرف المتخصصين أول عالم من العلماء المسلمين التجربيين في علم الحيوان[63].

خاتمة: إن اعتبار كتاب الحيوان للجاحظ كموسوعة علمية كان بمثابة الحجر الأساس في هذا المجال ونموذجا للتأليف في العلوم الحيوانية خلال القرن الثالث هجري، سار عليه من جاء بعده من حيث شموليته لسائر الحيوانات ودراسة خصائصها الداخلية والخارجية وسلوكها، وظائفها، غذائها... وفق منظور علمي قائم على المنطق والتجربة على عكس ما كانت عليه كتب الحيوان من قبل.

إن تنوع مضامين الكتاب جعل من سارتون يقول: الكتاب منجم للمعلومات، إلا أنه تراث شعبي (فلكلوري) أكثر منه في علم الحيوان، وأضاف أن أهم عمل هو كتاب الحيوان وهو تجميع غير منظم ديني في الأساس وفي التراث الشعبي أكثر منه في العلم...".

سارتون لم ينصف الجاحظ فالكتاب لم يختلف في بعض جوانبه كطرحه الأدبي وما يحتويه من نوادر وحكايات، بل قلد الجاحظ من سبقوه في هذا المضمار، كان حري على سارتون أن يطلع عليها بل بالعكس أضاف الجاحظ علوما أخرى إلى كتابه دلالة على سعة اطلاعه، كما أنه لا يمكننا نقد الجاحظ وفق المعايير والمناهج العلمية المعاصرة في الكتابة في علم الحيوان واتهامه بأخطاء لم يرتكبها في عصره، إنما جاء كتابه وفق الكتابة العامة في هذا المجال آنذاك، بل نؤكد تفوقه عن غيره في شموليته ومنهجه العلمي.

ومن هذا الجانب يعتبر الباحث مروان السبع القضية التي استلهمت الجاحظ كثيرا (الإخصاء وتسافد الحيوانات) لتدل على عمق اطلاعه وعمق معلوماته، وإن هذا الموضوع لمن الأمور الملحة التي تشغل علماء التهجين، وكذلك قضية التنفس من مسام الجلد ولا تقتصر على الرئتين فقط التي أسند الغرب كثيرا في المحافل الدولية أنه أول من اكتشفها متناسين ومتجاهلين تطرق الجاحظ إليهافي كتاب الحيوان إليها بالتفصيل.

بما أن الكتاب يقدم لنا ثروة أدبية ضخمة عن الحيوان من أشعار وقصص ومصطلحات، يرى محمد أعراب أن الكتاب أكبر خزان مصطلحي في علم الحيوان عند العرب، الكثير منهافي المعاجم المعاصرة تتشابه في معانيها مع ما ورد من مصطلحات في كتاب الجاحظ، فهو يرى ضرورة الرجوع إليه في إعداد أي مشروع معجمي لمصطلحات علم الحيوان عن العرب.

الهوامش

(1)أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ط، د.ت، مج3، ص470.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، مج5، ص2101.

(3) نفسه، ص2101، ابن خلكان، المصدر السابق، مج3، ص474.

(4) جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، د.ط، 1974م، ص7، 8.

(5) نفسه، ص19.

(6) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج3، ص471.

(7) أحمد بن يحي بن المرتضي، طبقات المعتزلة، تح: سوسة ديقلدقلزر، بيروت، ط2، 1417هـ/1987م، ص68.

(8) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص2101، ابن خلكان، المصدر السابق، ص471.

(9) شمس الدين محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح وإش: صالح السمر، شعيب أرنؤوط، دمشق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1402هـ/1982م، ج11، ص527.

(10) نفسه، ص527.

(11) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص2101.

(12) ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص471.

(13) الذهبي، المصدر نفسه، ج11، ص526، 527.

(14) نفسه، ج11، ص527، ابن خلكان، المصدر نفسه، ص471.

(15) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص2102.

(16) أحمد المرتضي، المصدر السابق، ص68.

(17) الذهبي، المصدر السابق، ج11، ص527، أحمد المرتضي، المصدر السابق، ص68.

(18) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص2102.

(19) ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص471.

(20) جميل جبر، المرجع السابق، ص29.

(21) ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص471.

(22) مروان السبع، شذرات مضيئة عن علم الحياة الحيوانية في التراث العربي الإسلامي،دمشق، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، د.ط، 1411هـ/1991م، ص16، 17.

(23) فلاح خليل العاني، موسوعة الحيوان عند العرب، عمان، مطبعة البهجة، ط1، 1998م، ص24.

(24) كتاب القول في البغال للجاحظ حققه وعلق عليه ووضع فهاريسه شارل بلا، طبع الطبعة الأولى سنة 1375هـ/ 1955م، بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(25) جميل جبر، المرجع السابق، ص68.

(26) الذهبي، المصدر السابق، ج11، ص557.

(27) إبراهيم سلمان الكروي، عبد التواب شرف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، الكويت، منشورات دار السلاسل، د.ط، 1404هـ/ 1984م، ص170.

(28) جيا فخري عمر الجاف، خليل حميد، النقد في العصر العباسي- الجاحظ ودوره الحضاري في القرن الثالث الهجري، بغداد، مجلة كلية التربية، د.ت، د.ط، العدد09، ص264، 265.

(29) الذهبي، المصدر السابق، ج11، ص528.

(30) جيا فخري، خليل حميد، المرجع السابق، ينظر: ص269 وما بعدها.

(31) علاقة الجاحظ بالمأمون والموكل والواثق وابن زيات، ينظر: طبقات المعتزلة، ص69، الذهبي، المصدر السابق، ج11، ص527، 528، 529، ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص471.

(32) علي المجدوب، علوم الزراعة والبيطرة في الحضارة الإسلامية، الإسلام اليوم، مجلة دورية تصدرها الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، العدد01، السنة01، جمادى الثانية 1403هـ/أفريل1983م، ص59.

(33) محمد مروان السبع، آثار الجاحظ في علم السلوك الحيواني لدى الثديات، أبحاث المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب، حلب، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 10، 12 تشرين الأول 1995م، ص185.

(34) ياسين خليل، العلوم الطبيعية عند العرب، د.ت: حسين مجيد العبيدي، بيروت، دار ومكتبة البصائر، ط1، 1431هـ/2010م، ص324.

(35) أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، دار الفكر العربي، ط1، 1411هـ/1991م، ص256.

(36) أبي عثمان عمر الجاحظ، الحيوان، تح، ش: عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، دت، ج1، ص18.

(37) نفسه، ص19.

(38) نفسه، ص19.

(39) لأرسطو طاليس ثلاث كتب عن الحيوان ترجم يوحنا بن البطريق اثنين، حققها وشرحها عبد الرحمن بدوي، وهو طباع الحيوان، ط1، 1988م، الكويت، وكالة المطبوعات، والثاني هو كتاب أجزاء الحيوان، ط1، 1978م، الكويت، وكالة المطبوعات، و الكتاب الثالث هو المقالة الرابعة عشرة من كتاب طبائع الحيوان البري والبحري لأرسطو طاليس، تحقيق وتعليق، دكتورة عزة محمد سالم، ط1، 1984م، القاهرة، الهئية المصرية للكتاب.

(40) نفسه، ص20.

(41) حسن الأمراني، الأدب والبناء الحضاري، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د.ط، 2000م، ص154.

(42) أحمد عبد الزاق أحمد، المرجع السابق، ص252.

(43) ياسين خليل، المرجع السابق، ص306.

(44) الجاحظ، المصدر السابق، ج1، ص24.

(45) نفسه، ج1، ص28.

(46) حسن الأمراني، المرجع السابق، ص155.

(47) ياسين خليل، المرجع السابق، ص330، 331.

(48) مروان السبع، المرجع السابق، ص188. ينظر أيضا: الجاحظ، المصدر السابق، ج1، ص130 وما بعدها، وكذلك ج1، ص158 وما بعدها.

(49) مروان السبع، نفسه، ص188.

(50) خليل ياسين، المرجع السابق، ص331.

(51) للوقوف على سلوك كل حيوان ينظر: فهرست الكتاب، الحيوان، ج8.

(52) ياسين خليل، المرجع السابق، ص329.

(53) حكمت نجيب، المرجع السابق، ص350، أحمد عبد الرزاق، المرجع السابق، ص350.

(54) علي المجدوب، المرجع السابق، ص59.

(55) للفرق بين البقر الأليف والمتوحش في صفته واسمه وفائده، ينظر: الحيوان، ج2، ص182، ج3، ص145، 146، ج4، ص38، ج5، ص477، ج5، ص484.

(56) ياسين خليل، المرجع السابق، ص328.

(57) الجاحظ، المصدر السابق، ج2، ص115، 116.

(58) نفسه، ص115.

(59) نفسه، ص20، 21.

(60) أحمد عبد الرازق، المرجع السابق، ص257.

(61) حكمت نجيب، المرجع السابق، ص351، حسن الأمراني، المرجع السابق، ص155، علي الجذوب، المرجع السابق، ص59.

(62) علي عبد الله الدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1406هـ/1986م، ص81، 82.

(63) حكمت نجيب، المرجع السابق، ص351، أحمد عبد الرازق، المرجع السابق، ص257.